

الفضاء ساحة للنضال الاجتماعي: الطبقات المهمشة وإعادة تشكيل الفضاء لدى ديفد هارفي جغرافيات المقاومة

Space as an Arena for Social Struggle: Marginalized Classes and the Reshaping of Space in David Harvey's Geographies of Resistance

د. عُمَر بن بوجليدة*

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (09 أفريل) (تونس)، amorbenboujlida@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/03/20 تاريخ القبول: 2026/04/12 تاريخ النشر: 2026/05/11

Abstract:

This paper examines the role of space in shaping class relations and social struggle, drawing on the work of David Harvey as its theoretical foundation. It argues that space is not a neutral backdrop but rather a social product structured by class hegemony. It is constantly produced and reproduced in line with the interests of capital and the State. In this sense, space is not only something created by the system, but something constantly reconstituted through it.

Building on this perspective, the paper highlights that, in Harvey's framework, urban space reflects the logic of economic domination, while simultaneously containing potential for resistance and reshaping by marginalized groups. At this point, the core issue becomes clearer: the future of space depends largely on the capacity of these marginalized groups to organize, voice their claims, and assert their rights.

Within this framework, resistance is understood as both embedded in and enacted through space. The concept of "The Right to the City" is thus presented as a call to reshape urban space so that it serves the needs of its inhabitants rather than the interests of capital. From this perspective, "Geographies of Resistance" can be regarded as a tool for redefining the relationship between people and space, where space emerges as a dual arena of both hegemony and emancipation.

Keywords: Space, Social Struggle, Class Hegemony, Emancipation.

ملخص البحث:

تروم هذه الورقة استشكال دور الفضاء في تكوين العلاقات الطبقية والصراع الاجتماعي. متوسلة أعمال "ديفيد هارفي"، منطلقا. محاولة تأكيد أن الفضاء ليس خلفية محايدة بل نتاج للهيمنة الطبقية، وأنه يُنتج ويُعاد إنتاجه باستمرار وفق مصالح رأس المال والدولة، فالفضاء ليس فقط ما يُنتج من قِبَل النظام، بل ما يُعاد إنتاجه.

وَحَرْصًا مَتًا عَلَى رَبِطِ هَذَا بِمَا كُنَّا قَدْ أَوْمِئْنَا إِلَيْهِ، أَعْلَاهُ، نشير إلى أن طروحات "هارفي"، تعرّف الفضاء الحضري، من جهة ما هو انعكاس لمنطق السيطرة الاقتصادية، لكنه في الوقت ذاته يحتوي على إمكانيات للمقاومة وإعادة التشكيل من قِبَل الطبقات المهمشة. وَإِذَا بَلَّغْنَا هَذَا الْمَوْضِعَ، حَقِيقَ بِنَا أَنْ نَدَقِّقَ الْإِشْكَالَ، لِيُظْهَرَ أَنَّ مَصِيرَهُ يَعْتمدُ عَلَى قُدْرَةِ الطَّبَقَاتِ الْمَهْمَشَةِ عَلَى التَّنْظِيمِ، وَالتَّغْيِيرِ وَقَرَضِ مَطَالِبِهَا.

وَضِمْنِ هَذَا الْأَفْقِ بَدَأْنَا نَسْتَبِينُ، أَنَّ الْمَقَاوِمَةَ تَتَجَسَّدُ فِي الْأَمَّاكِنِ، وَتُشَكِّلُهَا، مَبْرَزِينَ أَنَّ مَفْهُومَ "الحق في المدينة"، إنما هو دعوة لتغيير المدينة لتخدم حاجات السكان لا مصالح رأس المال. وَإِنْ هَذَا لَمَّا صَارَ يَحْتَمِ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَبِرَ "جغرافيات المقاومة"، إنما تُعدُّ، أداة لإعادة تعريف العلاقة بين الإنسان والمكان، حيث يصبح الفضاء ساحة مزدوجة للهيمنة والتحرر في الآن عينه.

الكلمات المفتاحية:

الفضاء؛ الصراع الاجتماعي؛ الهيمنة الطبقية؛ المقاومة؛ التحرر.

مقدمة:

مهاده الإشكال الذي سنشتغل عليه:

ولأنني أقترح هنا أن نأخذ كدليل لنا أعمال "ديفيد هارفي"، فمن الجدير بي، أن أشير منذ البدء، أن ما جذب اهتمامي، هو أن الفضاء، بمعناه الاجتماعي والسياسي، كان أكثر من مجرد خلفية محايدة تتحرك فيها الحياة اليومية. ولسوف يستبين إنه إنما هو نتاجٌ للتفاعلات الطبقيّة والصراعات الاجتماعية. وأنت إذا تعمقت، علمت أن المفكر الجغرافي-الأنثربولوجي، الماركسي، البريطاني - الأمريكي، "ديفيد هارفي"¹، يُعد، أحد أبرز من أعادوا التفكير في العلاقة بين الفضاء والسلطة والعدالة الاجتماعية. ولقد استشكل "ديفيد هارفي"، هذا المراد، ورام الوقوف عند أشكاله، ما دام قد حاول الدمج بين الماركسية والجغرافيا²، حيث قدم تحليلات نقدية للرأسمالية من منظور مكاني. ونتيجة لهذا الملمح، ركزت مفاهيمه ومفترضاته، على "الحق في المدينة"، "التراكم عبر نزع الملكية". وصرف همته إلى فهم كيفية تشكل المدن تحت تأثير الرأسمالية. واخترع ضرب من الإمكان مغاير³، وواظب على محاولة إدراك كيفية ارتباط الصراع الطبقي بالحيز الحضري. وبهذا التبصر المنتزع، استبان له من خلال قراءته النقدية للتحوّلات الحضرية والنيوليبرالية، أن الفضاء يُنتج ويُعاد إنتاجه باستمرار. ويجوز الجهر، أنه يُنتج ويُعاد إنتاجه، من خلال قوى السوق، والدولة، والفاعلين الاجتماعيين، لا سيما الفئات المهمشة. ولا يخفى على أولي النّهي، أن "ديفيد هارفي"، ينطلق، من فهم جدلي للفضاء، يجمع بين الاقتصاد السياسي والجغرافيا النقدية. وحتى ندقق الإشكال، نتطرح سؤاله، الذي يكشف كيف تُشكّل البنى المكانية أدوات للضبط الاجتماعي والتمييز الطبقي وفي الآن عينه، ميادين للمقاومة والنضال؟

ونحن إذا أمعنا النظر واستقصينا الرؤية، وجدنا ما يدفعنا شديداً، إلى تأكيد مُفاده، أن مفهومه لـ"حق في المدينة"، يُعد، إحدى أبرز صياغاته. والواقع أننا لو دققنا النظر، لبان لنا أن "ديفيد هارفي"، يدعو إلى إعادة تخيل الفضاء الحضري بما يخدم حاجات السكان لا مصالح رأس المال. وقد دلني هذا الأمر على واجب السؤال عن: كيف يُحوّل "ديفيد هارفي"، الفضاء إلى ساحةٍ للنضال الاجتماعي، مركزاً على الطبقات المهمشة ودورها في إعادة تشكيل الفضاء؟ وهو نفسه، ما أحالني على الضرب الأول من تناول الإشكال.

1/ الفضاء الاجتماعي كنتاج للهيمنة الطبقيّة:

وإنه لمن الضروري أن ننبه إلى أن "ديفيد هارفي"، يرى أن الفضاء الاجتماعي ليس معطىً طبيعياً أو محايداً. ولقد سبق منا القول، إنه إنما هو، نتيجة مباشرة للصراعات الطبقيّة، ولأنماط الإنتاج السائدة في كل مرحلة تاريخية. وإن هذا لما ألزمني بضرورة إبراز، أن الفضاء، يُنتج، ويتم تشكيله من خلال علاقات القوة والهيمنة. وأدق من ذلك، قولنا، إنه بذلك، يعكس منطق السيطرة الاقتصادية والسياسية للرأسمالية، إذ أكد "هارفي"⁴، أن المدينة ليست مجرد إطار مادي، بل بنية اجتماعية تعيد إنتاج اللامساواة. ويشير إلى أن توزيع الخدمات، وتخطيط الأحياء، وحتى مواقع النقل العام، كلها تُصمم غالباً بما يخدم الطبقات المهيمنة ويعزل الطبقات المهمشة. إذ ذهب إلى أن الجغرافيا، ليست، مجرد انعكاس للواقع الاجتماعي، بل هي وسيلة من وسائل إعادة إنتاج هذا الواقع.

هذا المعنى، يُنظر إلى الفضاء الحضري باعتباره أداة هيمنة تُستخدم لترسيخ الفروق الطبقية. وهو ما يظهر بوضوح في سياسات الإسكان، والتمهيش المكاني للأحياء الفقيرة، وخصخصة المساحات العامة. هذا الربط بين الفضاء ومنطق السوق هو ما أحاول إيضاحه، إذ أن ما يجب التلفت إليه هو أن "هارفي" يتابع في "حالات ما بعد الحداثة"، نقده للبنية المكانية للمدن النيوليبرالية⁵. حيث يوضح كيف أصبحت الفضاءات الحضرية خاضعة لمنطق السوق، مما أدى إلى طرد السكان الفقراء من مراكز المدن وتحويل الفضاءات إلى سلعة. ولتقريب هذا المُرَمَى، توسل "هارفي" مياسم له أخرى، بعضها على مسلك السلب، فإنتاج الفضاء في ظل الرأسمالية المتأخرة لم يعد يستهدف خدمة المجتمع، بل تحقيق أقصى قدر من الربح.

وإن هذا لوخز لطيف يَحْمِل، مظان تأملية ومعرفية، كاشفة المُر الدلالي: إذ تُظهر، هذه الرؤية كيف يُعاد تشكيل الفضاء باستمرار من خلال مصالح رأس المال. ولأن "الكثير"، يتخيل أن الجلي لا يحتمل المزيد من الإيضاح، تتوارى وتُقصى الطبقات الشعبية إلى الهوامش، ماديًا ورمزيًا. ولن يغيب عن ظن أحدٍ، أن الفضاء يصبح انعكاسًا لعلاقات إنتاج غير متكافئة. وإن هذا لما يمهد السبيل، للبرهنة على هذا التمشي وتفكيك الإشكالية والوقوف عند استتبعاته

إن الفضاء الاجتماعي، في تحليل "ديفيد هارفي"، لا يُفهم إلا باعتباره بنية مُنتجة ومُعاد إنتاجها وفق منطق الهيمنة الطبقية، بحيث يُنتزع من أي تصور طبيعي أو محايد، ويُعاد ربطه بشبكة معقدة من علاقات القوة التي تشكل بنيته المادية والرمزية على حد سواء. ما دامت الهندسة المكانية للمدن، ليست نتاجًا بريئًا لاعتبارات تقنية أو جمالية، بل هي ترجمة مجسدة لاستراتيجيات السيطرة الاقتصادية والسياسية التي تمارسها الطبقات المهيمنة، حيث يُصبح توزيع الخدمات، وتخطيط الأحياء، ومسارات النقل العام أدوات لفرض حدود التمايز الاجتماعي وتكريس الفصل الطبقي⁶. في هذا الإطار، لا يُقرأ الفضاء الحضري كمرآة للواقع الاجتماعي فحسب، بل كوسيلة فعالة لإعادة إنتاجه، وهو ما يتقاطع مع ما ذهب إليه "لوفيفر"⁷، حين اعتبر أن إنتاج الفضاء هو في ذاته ممارسة سياسية واقتصادية بامتياز.

تطرح مسألة الفضاء في الفكر المعاصر إذن، سؤالًا محوريًا حول طبيعة الواقع الاجتماعي وطريقة إنتاجه، إذ لم يعد الفضاء مجرد خلفية مادية للأحداث الإنسانية، بل أصبح مجالًا مركبًا للهيمنة والمقاومة، للإبداع والتجربة الإنسانية، وللأبعاد الرمزية والثقافية. في هذا السياق، يقدم "هنري لوفيفر"، رؤية فلسفية متعمقة للفضاء، يراه إنتاجًا اجتماعيًا متعدد المستويات، يتقاطع فيه المادي مع الرمزي، والواقعي مع التجريبي، والموضوعي مع التأويلي⁸. الفضاء عند "لوفيفر"، ليس محايدًا، فهو يعكس ويعيد إنتاج العلاقات الاجتماعية والسلطة، لكنه في الوقت نفسه قابل لإعادة التأويل والتشكيل من خلال الممارسات اليومية والتجارب الفردية والجماعية. التركيز هنا ليس على الشكل المادي للفضاء وحده، بل على كيفية إدراكه، وكيفية تفاعل الإنسان معه، بما يجعله تجربة حية تتيح فهم عمق التفاعل بين الذات والعالم، وبين الهيمنة والتحرر، وبين الرموز والممارسات الاجتماعية.

على جانب آخر، يقدم "ديفيد هارفي"، منظورًا تحليليًا-ماركسيًا للفضاء، مركّزًا على المدن بوصفها نتاجًا مباشرًا للعلاقات الاقتصادية والسياسية للرأسمالية. ففي كتبه يظهر "هارفي"⁹ أن الفضاء الحضري ليس

محيّدًا، بل هو أداة إنتاج للهيمنة الاقتصادية والسياسية، وفي الوقت نفسه ميدان محتمل للنضال الاجتماعي والمقاومة. ويربط تحليله بين التحولات الاقتصادية وسياسات الأرض والعقارات، وبين التفاوت الاجتماعي والفوارق الطبقيّة، مع إظهار كيفية استغلال الفضاء لتعزيز السيطرة والربح. وعلى الرغم من تركيزه المادي والتحليلي، يتفق "هارفي" مع "لوفيفر"، في نقطة جوهرية، وهي اعتبار الفضاء مجالًا للصراع والتحول الاجتماعي، ما يفتح الباب أمام إمكانية التغيير وإعادة إنتاجه بطرق أكثر عدالة.

إن المقاربتين، الفلسفية-التأويلية لـ"لوفيفر" والتحليلية-الماركسيّة لـ"هارفي"، تكشفان عن ثنائية مركزية في فهم الفضاء: فهو، من جهة، تجربة ذاتية وفينومينولوجية، تحمل المعاني الرمزية والثقافية، ومن جهة أخرى، هو إنتاج اجتماعي وسياسي واقتصادي يعكس ويعيد إنتاج الهيمنة والصراع الاجتماعي. بالتالي، يصبح الفضاء مفهومًا حيويًا لفهم الواقع الاجتماعي المعاصر، حيث تتقاطع البنى الفكرية والثقافية مع القوى الاقتصادية والسياسية، وتختبر الذات الإنسانية إمكانات المقاومة والتحرر. كما تؤكد المقاربتان على أن دراسة الفضاء لا يمكن اختزالها في بعد واحد؛ الفهم الشامل يتطلب الجمع بين النظرية الفلسفية الدقيقة والتحليل الاجتماعي-السياسي والتاريخي، مع التركيز على الممارسات اليومية والخبرات الإنسانية التي تشكل الفضاء وتعيد إنتاجه.

وفي عمق متداخل، ومتمنع في تأرجحه وتعقده عن كل جواب يقين، نقترح تتبع هذه المثنيات، وإعادة تطرح هذه الإشكالية المركزية: كيف يُنتج الفضاء اجتماعياً وسياسياً، وكيف يمكن للإنسان أن يمارس فعالية التأويل والمقاومة داخله؟ كما تبرز رهانات فلسفية وعملية: الأول فلسفي يتمثل في فهم الفضاء بوصفه تجربة وجودية واجتماعية متداخلة، والثاني سياسي واجتماعي يتعلق بإمكانات التحرر والمقاومة في الفضاء الحضري المعاصر. ومن ثمة يستبين بجلاء أظهر، أننا نهدف إلى توضيح العلاقة بين الهيمنة والتحرر، بين الإنتاج الاجتماعي للفضاء وبين التجربة الإنسانية له، عبر مقارنة منهجية بين رؤية "لوفيفر"، الفلسفية-التأويلية، ورؤية "هارفي"، التحليلية-السياسية، مع إبراز نقاط التقاءهما واختلافاتهما في فهم طبيعة الفضاء ودوره في تشكيل الواقع الاجتماعي. لقد شدد "هارفي"، على أن المدن النيوليبرالية تحولت إلى فضاءات خاضعة بالكامل لمنطق السوق، حيث يُدفع السكان الفقراء قسراً نحو الهوامش بفعل عمليات "التطهير المكاني"¹⁰، فيما تتحول المساحات العامة إلى سلع، وتُخصص الميادين التي كانت تُجسد يوماً إمكانات اللقاء الديمقراطي. إن هذا الارتباط الوثيق بين الفضاء ومنطق السوق، لا يعمل فقط على إعادة تشكيل المجال المادي، بل يعيد أيضاً تشكيل المخيال الاجتماعي، بحيث تصبح المدينة، بما تحويه من تهميش مكاني واستحواذ رمزي، أداة لتطبيع اللامساواة وتثبيتها في البنية العميقة للوعي الجمعي. وبهذا المعنى، يغدو الفضاء الحضري، كما يصفه "هارفي"، جهازاً أيديولوجياً يعمل على إعادة إنتاج أنماط الإنتاج غير المتكافئة، ويؤطر الحياة اليومية للأفراد ضمن شروط السوق الرأسمالي¹¹، بحيث يُقصى المهمّشون إلى تخوم المدينة فيزيائياً ورمزياً على السواء. وما يزيد من قوة هذه المقاربة هو التقاءها مع تحليلات "نيل سميث"¹² الذي رأى في إعادة تشكيل المجال الحضري "هجومًا طبقيًا" مقنّعًا، ومع ملاحظات "ساسكيا ساسن"¹³ حول انضغاط الفضاء بفعل رأس المال العابر للقوميات.

وهكذا بَانَ أن ما يقدمه "هارفي"، ليس مجرد توصيف نقدي لواقع عمراني، بل تفكيك دقيق لبنية السيطرة التي تجعل من الفضاء أداة لإدامة علاقات الهيمنة، وبهذا يُصبح أي صراع من أجل العدالة الاجتماعية بالضرورة صراعاً على الفضاء ذاته، بما يحمله من إمكانات المقاومة وإعادة التشكيل.

2/ نحو فضاء بديل – إمكانات المقاومة والتحرر لدى الفئات المهمشة:

عُدَّ إلى ما كنا قد بَسَطْنَا وسلَّمْنَا، في البدء به، تَجِدُ، أنه وبالرغم، من أن الفضاء في رأي "ديفيد هارفي"، يُنتَج من قبل قوى الهيمنة الرأسمالية. إلا أنه لا يُخْتَزَل في كونه مجرد أداة للسيطرة. بل يرى فيه إمكانات كامنة للمقاومة وإعادة التشكيل من قبل الطبقات المهمشة. وأوضح من ذلك وأعلق بسياقنا، ما كنا نروم – منذ البدء – تبينه، من أن الفضاء ليس ثابتاً، بل ديناميكي، ويمكن أن يتحول إلى مجال للصراع حيث تُعبّر الفئات الشعبية عن مطالبها، وتفرض وجودها، وتخوض نضالاً من أجل العدالة كما تقول عبارة نبهة، اتخذها لمقاله عنواناً: "الحق في المدينة"¹⁴. أوليس هذا معناه، أن المفهوم ليس فقط "مطلب للمشاركة في الحياة الحضرية"؟

وفي انعطافة تافؤلية، يستبين أنه إنما هو "حق لتغيير المدينة" نفسها. وعليه فليس مستبعد البتة، أن يتعالق هذا، بالحق في إعادة تشكيل الفضاء المادي والاجتماعي. وليس يصعب على المتمعن، في هذا: أن يرى أن البُغْيَة التي ظفرنا بها، إنما تتمثل فيما يخدم حاجات الأغلبية لا مصالح القلة. وإننا لنجد سنداً، يُدْكَر بدلالة هذه الفكرة: مُفاده، أن الحق في المدينة ليس مجرد حق في الوصول إلى ما هو موجود، بل هو حق في تغييره جذرياً¹⁵.

والشاغل الذي ما فتئ، يتردد في مشغله النظري، يؤشر إلى أن الحركات الاجتماعية التي تنطلق من الأحياء الفقيرة، وسكان العشوائيات، والمهمشين حضرياً: تملك طاقة تغيير حقيقية، لأنها تخوض معاركها في صميم التناقضات الرأسمالية المكانية – حيث يلتقي السكن مع الربح، والخدمة مع السوق، والحق مع الامتياز. وإن الناظر في كتاب "هارفي"، "عدالة، طبيعية، والجغرافيا المكانية للفروق الطبقيّة"¹⁶، يلاحظ بيسر أن هذه الحركات لا تسعى فقط إلى تحسين ظروفها. بل إلى إعادة تشكيل العلاقة بين الإنسان والمكان، من خلال ما يسميه: "جغرافيات المقاومة". ضمن هذا الأفق بدأنا نستبين، أن المقاومة تتجسد في الأماكن، وتُشكّلها، فالفضاء ليس فقط ما يُنتج من قبل النظام، بل ما يُعاد إنتاجه بفعل الاحتجاج.

وحرصاً منا على ربط هذا بما كنا قد أومأنا إليه، أعلاه، ونحن نحاول محاذة نص "هارفي"، نشير إلى أن الفضاء، يصبح أداة مزدوجة: ساحة للهيمنة وساحة للتحرر في الآن عينه. وخليق بنا إذا بلغنا هذا الموضع، أن ندقق الإشكال، ما كان في الوسع، ليظهر أن مصيره يعتمد على قدرة الطبقات المهمشة على التنظيم، والتعبير وفرض مطالبها. رُبَّ بعض الإفاضة تفيد في إمطة اللثام عن وجوه أخرى مَخْفِيّة من هذه الكمياء السياسية الجماهيرية، إذ سيكون الأمر سواء عبر الحركات الاجتماعية أو شبكات التضامن واحتلال المساحات العامة.

وبالرغم من ذلك ليس يضيرنا في شيء أننا لم نتوقع هذا الذي "يحصل لنا"، فلقد كان هؤلاء وأولئك ذاهلين عما حصل من طارئ ومتغير.

هكذا فالفضاء الاجتماعي، في تحليل "ديفيد هارفي"، لا يفهم إلا باعتباره بنية مُنتجة ومُعاد إنتاجها وفق منطق الهيمنة الطبقيّة، بحيث يُنتزع من أي تصور طبيعي أو محايد، ويُعاد ربطه بشبكة معقدة من علاقات القوة التي تشكل بنيته المادية والرمزية على حد سواء. على الرغم من كونه في تصور "هارفي"، نتاجاً لعلاقات الهيمنة الرأسمالية، لا يختزل إلى مجرد أداة للسيطرة، بل يتجلى أيضاً كحقل إمكانيات للمقاومة وإعادة التشكيل من قبل الفئات المهمشة، وهو ما يتجلى في ديناميكية التفاعلات الاجتماعية داخل المدينة، حيث تتقاطع الصراعات الطبقيّة مع ممارسات الحياة اليومية، بحيث يُمكن للطبقات الشعبية أن تعبّر عن مطالبها، وتفرض وجودها، وتخوض معارك مستمرة من أجل العدالة المكانية والاجتماعية. ومن هنا ينطلق مفهوم "هارفي"، "الحق في المدينة"، المعلوم، والذي لم يفهم فقط على أنه مطالبة بالمشاركة في الفضاء الحضري القائم، بل يتجاوز ذلك إلى حق تغيير المدينة ذاتها جذرياً، وإعادة تشكيل الفضاء المادي والاجتماعي بما يخدم احتياجات عموم الناس لا مصالح الأثري منهم، وهو ما يوضحه حين يصّر على أن "الحق في المدينة ليس مجرد حق في التواجد، بل هو حق في إعادة اختراع المدينة وفق إرادة سكانها"¹⁷. يشير إلى أن الحركات الشعبية التي تنطلق من الأحياء الفقيرة والمهمشين حضرياً تحمل طاقة تغييرية حقيقية لأنها تخوض معاركها في قلب التناقضات الرأسمالية المكانية، حيث تتقاطع علاقات السكن مع منطق الربح، والخدمات مع سوق الاستهلاك، والحق مع الامتياز¹⁸، ويصف "هارفي"، هذه الظاهرة بـ "جغرافيات المقاومة" - كما أشرنا أعلاه - التي تكشف قدرة السكان على إعادة إنتاج معاني المكان وإعادة التفاوض حوله، بحيث يتحول الفضاء من أداة طاعة إلى أداة تحرر، أو بالأحرى يصبح مزدوج الوظيفة: ساحة للهيمنة وساحة للتحرر في الآن ذاته. وتتجلى المقاومة، وفق "هارفي"، في أشكال متعددة تشمل التنظيم الاجتماعي المحلي، الحركات الاحتجاجية الجماعية، واحتلال المساحات العامة، وهو ما توافق عليه "ساسكيا ساسن"، حول قدرة الشبكات الشعبية على إعادة تشكيل المشهد الحضري ولو جزئياً¹⁹، و"نيل سميث"، بشأن الحركات المحلية التي تواجه التطوير العقاري المدعوم بالسياسة الرأسمالية وتفرض حدوداً على عمليات الطرد والتهميش²⁰.

يؤكد "هارفي"، أن مقاومة الفئات المهمشة تمتد إلى إعادة إنتاج المعنى الرمزي للفضاء²¹، بحيث تصبح الاحتجاجات والاعتصامات واحتلال الميادين العامة وسائل لإعادة تعريف المدينة وفرض رؤية بديلة على السلطة، وهي رؤية تعكس قيم العدالة والمساواة وتضع المجتمع في صميم عملية الإنتاج المكاني. كما يؤكد أن المقاومة ليست مجرد فعل سلمي ضد الهيمنة²²، بل هي إنتاج فضاء بديل يمكن أن يحقق العدالة الاجتماعية ويعيد توزيع القوة. وهكذا يظهر الفضاء الاجتماعي كحقل مثنوي الوظيفة، تتوالج في مستواه أهداف قهرية وغايات تحررية، إذ هو الذي يمارس الإقصاء وفي الآن عينه يؤسس لارهاصات تحرر ممكن. وعليه فكل التحليلات التي مقصودها المدينة أو التخطيط الحضري، إنما تكون تحليلاً لصراع مستمر بين مصالح الطبقات المختلفة، وتصبح كل عملية احتجاج أو حركة شعبية، مهما كانت محدودة، فرصة لإعادة إنتاج المدينة وفق منطق العدالة، وإعادة تعريف العلاقات بين الإنسان والمكان، -كما أومأنا إلى ذلك- بما يحقق البُغية المتمثلة في خدمة حاجات الأغلبية واستخدام الفضاء كأداة للعدالة والحرية. وقد لا يكون ثمة شك في أن مُنتوى "هارفي"، إنما

يكون وفق هذا التوجه، أن الفئات المهمشة تُعيد تشكيل الفضاءات الحضرية من خلال ممارستها اليومية، مما يُنتج جماليات سياسية تُعبّر عن هويتها ورفضها للهيمنة، بل إن "هارفي"، انتبه انتباها شديداً الحصفاء، أن هذه الجماليات تُسهم في إعادة تشكيل الفضاء كمساحة مقاومة.

3/ النيوليبرالية والخصخصة – تفكيك الحق الجماعي في الفضاء:

ربما يحسن بنا الآن، أن نشير إلى أبرز التحولات التي توقف عندها "ديفيد هارفي"، في تحليله للفضاء الحضري، وما يرتبط بصعود النيوليبرالية، إذ يعتبرها مشروعاً سياسياً واقتصادياً. ولا ينبغي أن نهمل هذه البدايات، والتي في مستواها يُعاد تشكيل المدن والمجتمعات، على أسس السوق والربح، ومن ثمة تقويض الأسس الجماعية للعيش المشترك. ولقد صار من البين بنفسه أن النيوليبرالية لا تؤدي فقط إلى إعادة توزيع الثروات، بل تعيد إنتاج الفضاء نفسه على نحوٍ يضمن استمرار الهيمنة الطبقية. وإن "هارفي"، كثيراً ما ألجأ على الربط بين تراكم رأس المال ونزع الملكية، أي عملية تحويل ما هو عام أو جماعي أو طبيعي إلى ملكية خاصة²³. ويتضح الإلحاح في التأكيد على أن النيوليبرالية لا تكتفي بتقليص الدولة، بل تُعيد تنظيم الفضاء وفق منطق الخصخصة والربح، ما يستتبعه تفريغ الحق في المدينة من مضمونه الجماعي. وإن هذا ليشير إلى ظاهرة خصخصة الحدائق وبيع الأراضي العامة وطردها السكان من المناطق المركزية لصالح مشاريع استثمارية، مما يؤدي إلى تفكيك النسيج الاجتماعي وتهديم المجتمعات المضطهدة قهراً، وتصبح المدينة عندها مجالاً للمضاربة العقارية أكثر من كونها فضاء مشتركاً للعيش والمشاركة.

وبعناد نظري طريف يحذر، "هارفي"، من أن هذا المنطق يؤدي إلى تسليع الفضاء الحضري حيث يُقاس كل شيء – (السكن، النقل والترفيه) – بقدرته على توليد الربح، لا على أساس الحاجة أو العدالة. ولا يخفى أن المراد مما سبق التعرض إليه، بيان أن الخصخصة لا تُعيد تنظيم الأرض، فحسب، بل تُعيد تشكيل الوعي، حيث يُنظر إلى الفضاء بوصفه استثماراً لاحقاً²⁴. ورغم أن هذا المنطق يبدو منطوقاً على مفارقات، فإن "هارفي"، يؤكد على أهمية مقاومته، من خلال استعادة الفضاء كملكية جماعية، سواء عبر التنظيمات الشعبية، أو السياسات الحضرية البديلة أو الممارسات اليومية التي ترفض الخضوع لمنطق السوق.

إذ تُعد النيوليبرالية، كما يراها "ديفيد هارفي"، أكثر من مجرد مجموعة من السياسات الاقتصادية؛ فهي مشروع سياسي شامل يهدف إلى إعادة تشكيل الفضاء الحضري بما يخدم مصالح رأس المال، ويظهر "هارفي"، أن النيوليبرالية تسعى إلى إعادة تنظيم الفضاء وفق منطق السوق والربح، مما يؤدي إلى "تفريغ الحق في المدينة من مضمونه الجماعي"²⁵.

ما دامت هذه العملية تتجسد فيما يسميه بـ «التراكم عن طريق النزع» (accumulation by dispossession)، حيث يتم تحويل الملكية العامة إلى ملكية خاصة عبر خصخصة الخدمات العامة. فالنيوليبرالية لا تكتفي بتقليص الدولة، بل تؤدي إلى "تسليع الفضاء الحضري"، حيث المعيار، يُكمن في القدرة على توليد الربح، لا على أساس الحاجة أو العدالة، وهو ما ينسبنا، حقوقنا الإنسانية، والحرية أكثرها إهمالاً، إذ لا تعود للحرية الأهمية في ابتداء مَدُننا وإعادة اكتشاف أنفسنا.

ورغم هذه الانزياحات، بدا لـ"هارفي"، وجود إمكانات للمقاومة، إذ هو يشدد على أن "الحق في المدينة"، هو أكثر من مجرد حرية الوصول إلى الموارد الحضرية: إنه حق في تغيير أنفسنا من خلال تغيير المدينة"²⁶. وبالتالي فالأحرى استعادة الفضاء كملكية جماعية عبر التنظيمات الشعبية، السياسات الحضرية البديلة، والممارسات اليومية التي تعارض الخضوع لمنطق السوق.

ولأن "هارفي"، يوضح أن الحق في المدينة ليس مجرد حق في الوصول إلى ما هو موجود، بل هو حق في تغييره جذرياً، يُشدد على أهمية التخيل السياسي (نحو خيال حضري مقاوم) في إعادة تشكيل الفضاء. إذ يُعتبر التخيل أداة لفهم الواقع وتخيله بشكل مختلف، مما يُسهم في بناء فضاءات أكثر عدالة وتضامناً. وعليه فالجغرافيا ليست مجرد علم مكاني، -كما مر معنا في ثانيا التحليل- بل هي فلسفة اجتماعية تُسهم في فهم العلاقات بين الإنسان والفضاء، ومن خلال هذا الفهم، يُمكن إعادة تشكيل الفضاء²⁷.

الخاتمة:

يتبين من خلال تحليل جوانب من طروحات "ديفيد هارفي"، أن الاستشكال الرئيس، الذي يجمعها. إنما كان الفضاء الحضري، وما يُنتج سياسياً واقتصادياً ويُعاد تشكيله باستمرار وفقاً لمصالح القوى المهيمنة، مما يجعله أداة لإعادة إنتاج اللامساواة. غير أن هذا الفضاء لا يخلو من إمكانات المقاومة، إذ ترى الفئات المهمشة فيه مجالاً للنضال، وفضاء لإعادة بناء علاقات أكثر عدالة. ومن ألطف ما نحن على يقين منه أن، الفهم النقدي للفضاء عند "هارفي"، ليس مجرد "تحليل نظري"، بل هو حَض على إعادة تشكيل المدن والحواضر وفق منطق جماعي تضامني، يضع الإنسان-لا السوق - في مركز السياسات الحضرية. فالفضاء، كما يظهر في فكره، ليس فقط ما يُعاش، بل ما يجب أن يُستعاد ويُعاد تخيُّله. وإذا كان الأمر هكذا، فحقيق بنا أن لا نكتفي بـ"التعقيل"، على أهميته، بل يجب أن نؤازر التعقيل بالتخيل، فيجتمع في الدهون، التعقيل متلازماً بالتخيل والرياضيات بالشعر بل قل الكينونة بالصور، تذكيراً بما هو الفلسفي، في لا وثوقيته وجدليته وديناميته، فليس أصعب من "محاولة قول الكينونة واستعصاءها، (ف) هما اللذان جعلاً من التفكير فيها تفكيراً على غاية من التعقيد، وهذا الأمر هو الذي مثل منطلق التفكير اليوناني، إذ أن اليونانيين هم "وحدهم" الذين عرفوا من أين يبدؤون أو كما يقول "نيتشه"، عرفوا متى يبدؤون"²⁸، ولئلا يندفن فينا التفكير قبل أن يولد.

الهوامش والإحالات:

¹ Castree, Noel; Charnock, Greig; Christophers, Brett. *David Harvey: A Critical Introduction to His Thought*. London – New York : Routledge, 2023.

² Sheppard, Eric; Barnes, Trevor J. (eds.). *A Companion to Economic Geography*. Oxford: Blackwell Publishing, 2000.

يتضمن فصلاً تحليلياً عن هارفي، يربط بين الجغرافيا الاقتصادية ونقد الرأسمالية

³ فهو يُعنى بالجغرافيا الأكاديمية، الفكر الماركسي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والحدثة السياسية العامة. ومن أهم إسهاماته النظرية في فهم ديناميات الرأسمالية: "العقبة المكانية" (spatial fix) و"تراكم عبر التخلّص" (accumulation by dispossession).

مفاهيمه باتت أدوات تحليلية محورية في جغرافيا المدن، النظرية الجماعية، والنشاط السياسي المعاصر

⁴ HARVEY, David, *Social Justice and the City*, Baltimore : Johns Hopkins University Press, 1973, 2^e éd. révisée, 2009.

⁵ HARVEY, David. *The Condition of Postmodernity : An Enquiry into the Origins of Cultural Change*. Cambridge & Oxford : Blackwell, 1989

ديفيد هارفي، *حالة ما بعد الحدثة: بحث في أصول التغيير الثقافي*، ترجمة محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.

⁶ HARVEY, *Social Justice and the City*, op. cit., p. 22

⁷ LEFEBVRE, Henri, *La production de l'espace*, Paris, Anthropos, 1974, p. 50.

⁸ Ibid

⁹ HARVEY, David, *Rebel Cities: From the Right to the City to the Urban Revolution*, Londres – New York, Verso, 2012.

¹⁰ HARVEY, David, *The Condition of Postmodernity: Op. Cit*, p. 264.

¹¹ HARVEY, David, *Spaces of Global Capitalism: Towards a Theory of Uneven Geographical Development*, London – New York, Verso, 2006, p. 101.

¹² SMITH, Neil, *The New Urban Frontier: Gentrification and the Revanchist City*, London – New York, Routledge, 1996, p. 89.

¹³ SASSEN, Saskia, *The Global City: New York, London, Tokyo*, Princeton, Princeton University Press, 1991, p. 217.

¹⁴ HARVEY, David. « The Right to the City », *New Left Review* no 53 (sept.–oct. 2008), p. 23-40.

Inclusion in revised edition of Social Justice and the City (2009).

بشكل عام، المفهوم نفسه مأخوذ من فكر هنري لوفيفر الذي أصدر العام 1968 كتابا عنوانه: *Le Droit à la Ville* (الحق في المدينة).

¹⁵ ويجب أن نشير إلى أن ديفيد هارفي، كتب نصين رئيسيين بعنوان: "*The Right to the City*"

النص القصير عام 2003 (افتتاحي)

International Journal of Urban and Regional Research "The right to the city is not merely a right of access to what already exists, but a right to change it."

المقالة المطولة في *New Left Review* عام 2008 (عدد 53، ص 23-40) – وهي نص مختلف في السياق، أوسع في الطرح، يعيد تطوير الفكرة ويربطها بأزمات الرأسمالية والتمدين.

¹⁶ HARVEY, David. *Justice, Nature, and the Geography of Difference*. Cambridge: Blackwell Publishers, 1996.

¹⁷ HARVEY, David, *Social Justice and the City*, Op. Cit, p. 158.

¹⁸ HARVEY, David, *Justice, Nature and the Geography of Difference*, Op. Cit, p. 282.

¹⁹ SASSEN, Saskia, *The Global City: New York, London, Tokyo*, Op. Cit, p. 233.

²⁰ SMITH, Neil, *The New Urban Frontier: Gentrification and the Revanchist City*, Op. Cit, p. 112.

²¹ HARVEY, David, *The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origins of Cultural Change*, Op. Cit, p. 290.

²² HARVEY, David, *Spaces of Hope*, Edinburgh, Edinburgh University Press, 2000, p. 76.

²³ HARVEY, David. *The New Imperialism*. Oxford: Oxford University Press, 2003, Clarendon Lectures in Geography and Environmental Studies.

يناقش هارفي في الكتاب كيف أن الإمبريالية الحديثة ليست مجرد توسع اقتصادي وسياسي، بل عملية إعادة تشكيل للعالم من خلال السيطرة على الموارد والأسواق. يُركّز الكتاب أيضاً، على إنتاج الفضاء باعتباره أداة مركزية في الهيمنة، حيث تُنظّم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لتكريس عدم المساواة بين الدول والمناطق. كما يرى، أن الفضاء الاجتماعي والمادي ليس محايداً؛ بل هو وسيط لإعادة إنتاج القوة والهيمنة، مما يجعل التخطيط الحضري والاقتصادي جزءاً من الآليات الإمبريالية الحديثة.

²⁴ HARVEY, David. *Rebel Cities: From the Right to the City to the Urban Revolution Op. Cit*, 2012. HARVEY, David. *Villes rebelles : Du droit à la ville à la révolution urbaine*. Traduit de l'anglais par Odile Demange. Paris: Buchet/Chastel, 2015

هو هنا يُعيد طرح مفهوم "الحق في المدينة" باعتباره حقاً جماعياً في إعادة تشكيل الفضاء الحضري بما يتماشى مع العدالة الاجتماعية والبيئية. كما حلل الكتاب كيف أن المدن أصبحت مسرحاً رئيسياً للصراعات الطبقيّة، حيث تُستخدم السياسات الحضرية كأدوات لإعادة إنتاج الهيمنة الرأسمالية. من خلال استعراض حركات مثل "احتلال وول ستريت" والانتفاضات في لندن، يُبرز هارفي كيف يمكن للمدن أن تكون مركزاً للمقاومة والتحول الاجتماعي.

²⁵ HARVEY, David, *A Brief History of Neoliberalism*, Oxford, Oxford University Press, 2005.

²⁶ HARVEY, David, *Rebel Cities: From the Right to the City to the Urban Revolution*, Op.Cit, 2012.

مثال مدينة نيويورك: مقاومة في الفضاء

أخذ هارفي مدينة نيويورك كمثال حي على فاعلية هذه الحركات الاجتماعية، حيث نمت الحركة الاحتجاجية ضد سياسات التهميش العرقي والطبقي، وتحديدًا من قبل سكان الأحياء الفقيرة التي كانت مهددة بالطرد لصالح المشاريع العقارية الكبرى. في كتابه "مدن ثائرة" (2012, Rebel Cities)، يذكر هارفي كيف يمكن لتضامن الجماهير من سكان الأحياء المهمشة أن يشكل حاجزاً أمام عملية "تسليع الفضاء" الذي تمارسه الشركات العقارية الكبرى. في هذه الاحتجاجات، لم يكن المتظاهرون يطالبون فقط بحقوقهم في السكن، بل كانوا يسعون إلى "إعادة تشكيل الفضاء" بحيث يُعطى للمواطنين الحق في التفاعل مع المدينة باعتبارها ملكاً مشتركاً.

²⁷ ويمكن أن نضرب بـ"التجربة" التونسية، مثلاً، حيث شهدت المدن التونسية عمليات خصخصة واسعة النطاق للمساحات العامة. على سبيل المثال، تم تحويل العديد من الحدائق العامة إلى مشاريع سكنية وتجارية، مما أدى إلى تقليص المساحات الخضراء المتاحة للسكان. كما تم بيع الأراضي العامة لمستثمرين خاصين، مما ساهم في ارتفاع أسعار العقارات وتفاقم مشكلة السكن للفئات ذات الدخل المحدود.

علاوة على ذلك، أدى تطبيق سياسات النيوليبرالية إلى تفكيك النسيج الاجتماعي في العديد من الأحياء الشعبية. تم طرد العديد من السكان من مناطقهم الأصلية لصالح مشاريع استثمارية، مما أدى إلى تشريدتهم وتهميشهم اجتماعياً. تُظهر هذه الظواهر كيف أن النيوليبرالية لا تقتصر على إعادة تنظيم الفضاء المادي، بل تشمل أيضاً إعادة تشكيل الوعي الاجتماعي، حيث يُنظر إلى الفضاء بوصفه استثماراً مالياً، مما يؤدي إلى تهميش القيم الجماعية والعدالة الاجتماعية لصالح منطق السوق.

²⁸ NIETZSCHE, Friedrich, *La philosophie à l'époque tragique des Grecs*, traduction de l'allemand par Jean-Louis Backès, Michel Haar et Marc de Launay, édition établie par Giorgio Colli et Mazzino Montinari, Paris, Gallimard, 1975.p 13

(را، معز مديوني، صراع العمالقة حول الكينونة، دار الوسيط للنشر، تونس 2014، ص 11).

I. Œuvres originales de David Harvey

- Harvey, David. *Explanation in Geography*. London: Edward Arnold, 1969.
- Harvey, David. *Social Justice and the City*. London: Edward Arnold, 1973; rev. ed., Athens (GA): University of Georgia Press, 2009.
- Harvey, David. *The Limits to Capital*. Oxford: Basil Blackwell, 1982; new ed., London–New York: Verso, 2018.
- Harvey, David. *The Urbanization of Capital*. Oxford: Blackwell, 1985.
- Harvey, David. *Consciousness and the Urban Experience*. Oxford: Blackwell, 1985.
- Harvey, David. *The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origins of Cultural Change*. Oxford: Blackwell, 1989.
- Harvey, David. *Justice, Nature and the Geography of Difference*. Oxford: Blackwell, 1996.
- Harvey, David. *Spaces of Hope*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2000.
- Harvey, David. *Spaces of Capital: Towards a Critical Geography*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2001.
- Harvey, David. *The New Imperialism*. Oxford: Oxford University Press, 2003.
- Harvey, David. *Paris, Capital of Modernity*. New York: Routledge, 2003.
- Harvey, David. *A Brief History of Neoliberalism*. Oxford: Oxford University Press, 2005.
- Harvey, David. *Spaces of Global Capitalism: Towards a Theory of Uneven Geographical Development*. London–New York: Verso, 2006.
- Harvey, David. *Cosmopolitanism and the Geographies of Freedom*. New York: Columbia University Press, 2009.
- Harvey, David. *A Companion to Marx's Capital*. London–New York: Verso, 2010; vol. 2, 2013.
- Harvey, David. *Rebel Cities: From the Right to the City to the Urban Revolution*. London–New York: Verso, 2012.
- Harvey, David. *Seventeen Contradictions and the End of Capitalism*. London: Profile Books, 2014.

II. Traductions en français et en arabe

A) Français

- Harvey, David. *Le capitalisme contre le droit à la ville. Néolibéralisme, urbanisation, résistances*. Trad. Cl. Garrot et al. Paris: Éditions Amsterdam, 2011.
- Harvey, David. *Paris, capitale de la modernité*. Trad. (coord.) Matthieu Giroud. Paris: Les Prairies ordinaires, 2012.
- Harvey, David. *Géographie de la domination. Capitalisme et production de l'espace*. Trad. Nicolas Vieillescazes. Paris: Éditions Amsterdam, 2018.
- Harvey, David. *Villes rebelles. Du droit à la ville à la révolution urbaine*. Trad. Odile Demange. Paris: Buchet-Chastel (Libella), 2015.

- Harvey, David. Les limites du capital. Trad. Nicolas Vieillescazes, préf. Cédric Durand. Paris: Éditions Amsterdam, 2020.
- Harvey, David. Pour lire Le Capital. Trad. française de A Companion to Marx's Capital. Paris: La Ville Brûle, 2010.

B) Arabe

- هارفي، ديفيد. حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التغيير الثقافي. ترجمة فالح عبد الجبار وآخرين. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009.
- هارفي، ديفيد. الوجيز في تاريخ النيوليبرالية. ترجمة وليد شحادة. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، 2013.
- هارفي، ديفيد. المدن المتمردة: من «الحق في المدينة» إلى الثورة الحضرية. ترجمة لبنى صبري. القاهرة: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017.
- هارفي، ديفيد. الإمبريالية الجديدة. ترجمة وليد شحادة. بيروت: شركة الحوار الثقافي، 2004.
- هارفي، ديفيد. مدخل إلى رأس المال. ترجمة عربية لـ A Companion to Marx's Capital. دمشق: هيئة قصور الثقافة.

III. Études et ouvrages sur David Harvey

- Vieillescazes, Nicolas (dir.). « Traduire et lire Harvey: la pensée géographique par la brèche ». EchoGéo, 2012.
- Revue JSSJ/Justice spatiale | Spatial Justice. « Villes rebelles. Du droit à la ville à la révolution urbaine » (compte rendu), 2015.
- Le Monde. « Villes : le combat continu », 21 février 2015.
- Note de lecture: « David Harvey, Les limites du capital », Lectures / OpenEdition, 2021.
- Article: « David Harvey, Géographie de la domination », Géographie et cultures (OpenEdition), 2019–2020.
- Actuel Marx. « Le Nouvel Impérialisme: accumulation par expropriation », 2004.
- NIETZSCHE, Friedrich, La philosophie à l'époque tragique des Grecs, traduction de l'allemand par Jean-Louis Backès, Michel Haar et Marc de Launay, édition établie par Giorgio Colli et Mazzino Montinari, Paris, Gallimard, 1975.
- معز مديوني، صراع العمالقة حول الكينونة، دار الوسيط للنشر، تونس 2014